ملحق ١
القرآن الكريم في المقدّمة

إن ابن خلدون قلّما ينهي بابًا، أو فصلًا من مقدِّمته إلا وختمه بآية من القرآن الكريم، أو بحديث شريف، أو ما شابه ذلك، كما ترد الآيات في ثنايا الفصول في بعض الأحيان، وقد ذكرنا ذلك في مبحث سابق تحت عنوان: (علم العمران الخلدوني ذو خلفيَّة إسلاميَّة)، وهو أحد مباحث الفصل السادس الذي هو بعنوان: (علم العمران الخلدوني، وعلم الاجتماع الغربي: الاتصال، والانفصال).

أما الآن فلنتتبع في هذا الفصل الآيات القرآنيَّة التي وردت في المقدِّمة:

الفصل الأول من الكتاب الأول: في العمران البشري على الجملة:

ص٤٩ {أعطى كل شيء خلقه ثمَّ هدى} [طه: ٥٠].

المقدِّمة الثَّانية من نفس الفصل: ضمن العنوان: تفصيل الكلام على الجغرافيا: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب} [آل عمران: ١٩٠] ص٨٣.

المقدِّمة الثَّالثة:

في المقدِّمة الثَّالثة: في المعتدل من الأقاليم، والمنحرف، وتأثير الهواء: {أعطى كل شي خلقه ثمَّ هدى} [طه: ٥٠] ص٤٧.

في طبيعة العمران في الخليقة، وما يعرض فيها من البدو، والحضر، والتغلب، والكسب، والمعاش، والصَّنائع، والعلوم، ونحوها، وما لذلك من الأسباب: {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} [الإسراء: ٨٥] ص٤٥.

في ألوان البشر والكثير من أحوالهم:

{كنتم خير أمة أخرجت للناس} [آل عمران: ١١٠] ص٨٤.

{ولن تجد لسنة الله تبديلا} [الأحزاب: ٦٢]، [الفتح: ٢٣] ص٨٧.

المقدِّمة الرَّابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر:

{والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [البقرة: ٢١٣] ص٨٨.

المقدِّمة السَّادسة: في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة، أو بالرياضة:

{إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا} [المزمل: ٥].

{ومن يضلل الله فما له من هاد} [غافر: ٣٣].

{والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [البقرة: ٢١٣] ص١١٢.

{والله يعلم وأنتم لاتعلمون} [النور: ١٩] ص١١٧.

فصل في أن البدو لايكون إلا للقبائل أهل العصبيَّة:

{وهديناه النجدين} [البلد: ١٠] ص١٢٤.

{فألهمها فجورها وتقواها} [الشمس: ٨] ص١٢٤.

{لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون} [يوسف: ١٤] ص١٢٥.

فصل في أن البيت، والشرف بالأصالة، والحقيقة لأهل العصبيَّة، ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه:

{والله بكل شيء عليم} [البقرة: ٢٨٢] ص١٣١.

فصل في أن البيت، والشرف للموالي، وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم، لا بأنسابهم:

{إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: ١٣] ص١٣٢.

{إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز} [إبراهيم: ١٩-٢٠] ص١٣٣.

فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبيَّة هي الملك:

{ولولا دفع الله النَّاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض} [البقرة: ٢٥١] ص١٣٥، {والله يؤتي ملكه من يشاء}[البقرة: ٢٤٧] ص١٣٦.

فصل في أن من عوائق الملك (حصول) المذلة للقبيل، والانقياد إلى سواهم:

{إن فيها قومًا جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها} [المائدة: ٢٢] ص١٣٦.

{فاذهب أنت وربك فقاتلا} [المائدة: ٢٤] ص١٢٦.

{وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا} [الإسراء: ١٦] ص١٣٨.

{وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له} [الرعد: ١١] ص١٣٩.

فصل في أنه إن كانت الأمة وحشيَّة؛ كان ملكها أوسع:

{ليظهره على الدِّين كله ولو كره المشركون} [التوبة: ٣٣] ص١٣٩.

{والله يقدر الليل والنهار} [المزمل: ٢٠] ص١٤٠.

فصل في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة؛ فلا بدَّ من عودة إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبيَّة:

{والآخرة عند ربك للمتقين} [الزخرف: ٣٥] ص١٤٠.

فصل في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك:

{والله يؤتي ملكه من يشاء} [البقرة: ٢٤٧] ص١٤٦.

الفصل الثَّالث: في الدُّول العامَّة، والملك، والخلافة، والمراتب السُّلطانيَّة، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال: فصل في أن الملك، والدَّولة العامَّة إنما يحصلان بالقبيل، والعصبيَّة:

{وهو بكل شيء عليم} [البقرة: ٢٩] ص١٤٧.

فصل في أنه إذا استقرت الدَّولة، وعهدت قد تستغني عن العصبيَّة:

{والله يؤتي ملكه من يشاء} [البقرة: ٢٤٧] ص١٤٩.

فصل في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبيَّة:

{والله يحكم لا معقب لحكمه} [الرعد: ٤١] ص١٥٠.

فصل في أن الدَّولة العامَّة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدِّين، إما من نبوة، أو دعوة حق {لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم} [الأنفال: ٦٣] ص١٥٠.

فصل في أن الدعوة الدِّينيَّة تزيد الدَّولة في أصلها قوة على قوة العصبيَّة التي كانت لها من عددها:

{والله غالب على أمره} [يوسف: ٢١] ص١٥١.

فصل في أن عظم الدَّولة، واتساع نطاقها، وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة، والكثرة:

{سنت الله التي قد خلت في عباده} [غافر: ٨٥] ص١٥٥.

فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل، والعصائب قلَّ أن تستحكم فيها الدَّولة:

{والله غالب على أمره} [يوسف: ٢١] ص١٥٦.

فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد:

{لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} [الأنبياء: ٥٢] ص١٥٧.

{سنت الله التي قد خلت في عباده} [غافر: ٨٥] ص١٥٨.

فصل في أن من طبيعة الملك الدعة، والسُّكون:

{وهو خير الحاكمين} [الأعراف: ٨٧] ص١٥٨.

فصل في أن الدَّولة لها أعمار طبيعيَّة كما للأشخاص:

{حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة}[الأحقاف: ١٥]، {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} [الأعراف: ٣٤] ص١٦١، {والله يقدر الليل والنهار} [المزمل: ٢٠] ص١٦٢.

فصل في أن آثار الدَّولة كلها على نسبة قوتها في أصلها:

{قل رب زدني علمًا} [طه: ١١٤] ص١٧١.

{وأنت أرحم الراحمين} [الأعراف: ١٥١] ص١٧١.

فصل في أحوال الموالي، والمصطنعين في الدُّول:

{ذلكم الله وهو على كل شيء وكيل} [الأنعام: ١٠٢] و[الزمر: ٦٢] ص١٧٣.

{والله يؤتي ملكه من يشاء} [البقرة: ٢٤٧] ص١٧٤.

{وهو على كل شيء قدير} [المائدة: ١٢٠]، وغيرها ص١٧٤.

فصل في معنى الخلافة، والإمامة:

{سنة الله في الذين خلوا من قبل} [الأحزاب: ٣٨] ص١٧٧.

{أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا} [المؤمنون: ١١٥] ص١٧٨.

{صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض} [الشورى: ٥٣] ص١٧٨.

{ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور} [النور: ٤٠] ص١٧٨.

{يعلمون ظاهرًا من الحياة الدُّنيا} [الروم: ٧] ص١٧٨.

فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب، وشروطه:

{إني جاعل في الأرض خليفة} [البقرة: ٣٠] ص١٧٨.

{وجعلناكم خلائف في الأرض} [يونس: ١٤] ص١٧٨.

{وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} [النِّساء: ٥٩] ص١٨٣.

فصل في انقلاب الخلافة إلى الملك:

{إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: ١٣] ص١٨٨.

{لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم} [الممتحنة: ٣] ص١٨٩.

{رب اغفر لي وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي} [ص: ٣٥] ص١٨٩.

فصل في اللقب بأمير المؤمنين، وأنه من سمات الخلافة، وهو محدث منذ عهد الخلفاء:

{والله غالب على أمره} [يوسف: ٢١] ص٢١٢.

فصل في مراتب الملك، والسُّلطان، وألقابها:

{واجعل لي وزيرًا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري} [طه: ٢٩-٣٢] ص٢١٧.

فصل في إشارات الملك، والسُّلطان الخاصَّة به:

{وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف: ٧٦] ص٢٣٦.

{ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين} [الروم: ٢٢] ص٢٣٨.

{ذلك تقدير العزيز العليم} [الأنعام: ٩٦]، [يس: ٣٨]، [فصلت: ١٢] ص٢٤١.

{يحق الحق بكلماته} [الأنفال: ٧]، [الشورى: ٢٤] ص٢٤٢.

{وخلق كل شيء فقدره تقديرًا} [الفرقان: ٢] ص٢٤٢.

{ختامه مسك} [المطففين: ٢٦] ص٢٤٢.

فصل في الحروب، ومذاهب الأمم:

{إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص} [الصف: ٤] ص٢٤٨.

{والله بكل شيء عليم} [النِّساء: ١٧٦] ص١٥١.

فصل في الجباية، وسبب قلتها، وكثرتها:

{بيده ملكوت كل شيء} [المؤمنون: ٨٨]، [يس: ٨٣] ص٢٠٦.

فصل في أن ثروة السُّلطان، وحاشيته إنما تكون في وسط الدَّولة:

{سنت الله التي قد خلت في عباده} [غافر: ٨٥] ص٢٦٠.

فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران:

{وما ربك بظلام للعبيد} [فصلت: ٤٦] ص٢٦٤.

فصل في أن الهرم إذا نزل بالدَّولة لا يرتفع:

{لكل أجل كتاب} [الرعد: ٣٨].

{والله يقدر الليل والنهار} [المزمل: ٢٠] ص٢٧١.

{وهو الواحد القهار} [الرعد: ١٦] ص٢٧١.

فصل في أن الدَّولة المستحدثة إنما تستولي على الدَّولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة:

{ولن تجد لسنة الله تبديلًا} [الأحزاب: ٢٢٦]، [الفتح: ٢٣] ص٢٧٥.

فصل في أن العمران البشري لا بدَّ له من سياسة ينتظم بها أمره:

{تنهى عن الفحشاء} [العنكبوت: ٤٥] ص٢٧٨.

{ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} [الحشر: ٩] ص٢٨١.

فصل في أمر الفاطمي، وما يذهب إليه النَّاس في شأنه، وكشف الغطاء عن ذلك:

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون} [البقرة:٢١٦] ص ٣٠٠.

فصل في حدثان الدَّولة، والأمم:

{وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون} [الحج: ٤٧] ص٣٠٢.

{منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات} [آل عمران: ٧] ص٣٠٣.

فصل في المساجد، والبيوت العظيمة العالم:

{وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل} [البقرة: ١٢٧] ص٣٢٠.

فصل في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل:

{والله يحكم لا معقب لحكمه} [الرعد: ٤١] ص٣٢٨.

فصل في أسعار المدن:

{وهو الواحد القهار} [الرعد: ١٦] ص٣٣٣.

فصل في تأثر العقار، والضياع في الأمصار، وحال فوائدها، ومستغلاتها:

{والله يحكم لا معقب لحكمه} [الرعد: ٤١] ص٣٣٦.

فصل في أن الحضارة غاية العمران، ونهاية لعمره، وأنها مؤذنة بفساده:

{وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا} [الإسراء: ١٦] ص٣٤٠.

{كل يوم هو في شأن} [الرحمن: ٢٩] ص٣٤١.

فصل في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدَّولة، وانقراضها:

{والله يقدر الليل والنهار} [المزمل: ٢٠] ص٣٤٣.

فصل في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصَّنائع دون بعض:

{والله يقبض ويبسط} [البقرة: ٢٤٥] ص٣٤٤.

{غالب على أمره} [يوسف: ٢١] ص٣٤٥.

فصل في حقيقة الرزق، والكسب، وشرفهما، وأن الكسب هو قيمة الأعمال:

{والله الغني وأنتم الفقراء} [محمد: ٣٨] ص٣٤٧.

{وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه} [الجاثيَّة: ١٣٨] ص٣٤٧.

{وسخر لكم الشمس والقمر} [إبراهيم: ٣٣] ص٣٤٧.

{سخر لكم البحر} [الجاثية: ١٢] ص٣٤٧.

{وسخر لكم الفلك} [إبراهيم: ٣٢] ص٣٤٧.

{فابتغوا عند الله الرزق} [العنكبوت: ١٧] ص٢٤٧.

{والله يقدر الليل والنهار} [المزمل: ٢٠] ص٣٤٨.

{والله يرزق من يشاء بغير حساب} [البقرة: ٢١٢]، [النور: ٣٨] ص٣٥٤.

فصل في أن السَّعادة، والكسب إنما يحصلان غالبًا لأهل الخضوع، والتَّملُّق، وأن هذا الخلق من أسباب السَّعادة:

{ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًّا ورحمة ربك خير مما يجمعون} [الزخرف: ٣٢] ص٣٥٥.

فصل في أن أصناف النَّاس ينتفع بالتجارة، وأيهم ينبغي له اجتناب حرفتها:

{ولولا دفع الله النَّاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين} [البقرة: ٢٥١] ص٣٦٠.

{الله هو الرزاق ذو القوة المتين} [الذاريات: ٥٨] ص٣٦١.

{والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٦] ص٣٦٣.

فصل في صناعة الطب، وأنها محتاج إليها في الحواضر، والأمصار دون البادية:

{سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا} ص٣٧٨.

{خلق الإنسان علمه البيان} [الرحمن: ٣-٤] ص٣٨٣.

فصل في أن تعليم العلم من جملة الصَّنائع:

{والله يخلق ما يشاء} [آل عمران: ٤٧] ص٣٩٦.

فصل في علوم القرآن من التَّفسير، والقراءات:

{لتبين للناس ما نزل إليهم} [النحل: ٤٤] ص٣٩٩.

{إذا جاء نصر الله والفتح} [النصر: ١] ص٣٩٩.

{وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف: ٧٦] ص٤٠١.

فصل في علوم الحديث:

{ما ننسخ من آية أوننسها نأت بخير منها أو مثلها} [البقرة: ١٠٦] ص٤٠١.

{والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [البقرة: ٢١٣] ص٤١١.

فصل في أصول الفقه، وما يتعلق به من الجدل، والخلافيات:

{إنه على كل شيء قدير} [فصلت: ٣٩]، [الأحقاف: ٣٣] ص٤١٥.

فصل في علم الكلام:

{ثمَّ ذرهم في خوضهم يلعبون} [الأنعام: ٩١] ص٤١٧.

{قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد} [الإخلاص: ١-٤] ص٤١٨.

{والله من ورائهم محيط} [البروج: ٢٠] ص٤١٨.

{فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون} [الماعون: ٤-٥] .

{اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} [الفاتحة: ٦-٧] ص٤١٩.

{والله ولي المؤمنين} [آل عمران: ٦٨] ص٤٢٤.

{إني جاعل في الأرض خليفة} [البقرة: ٣٠] ص٤٢٥.

فصل في العقل التجريبي، وكيفيَّة حدوثه:

{وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون} [المجادلة: ٩]، [الملك: ٢٣] ص٤٢٧.

فصل في علوم البشر، وعلوم الملائكة:

{علم الإنسان ما لم يعلم} [العلق: ٥] ص٤٢٨.

فصل في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

{إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم الله إله واحد فاستقيموا} [فصلت: ٦] ص٤٢٩.

فصل في أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب:

{وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة} [السجدة: ٩]، [الملك: ٢٣] ص٤٢٩.

{اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم} [العلق: ٥] ص٤٢٩.

{وكان الله عليمًا حكيمًا} [النِّساء: ١٧، ٩٢، ١٠٤، ١١١، ١٧٠]، [الفتح: ٥٤] ص٤٢٩.

فصل في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب، والسنة، وما حدث لأجل ذلك من طوائف، وما حدث بعد ذلك من طوائف السنيَّة، والمبتدعة في الاعتقاد:

{وهو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب} [آل عمران: ٧] ص٤٣٠.

{هن أم الكتاب} [آل عمران: ٧] ص٤٣٠.

{وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب} [آل عمران: ٧] ص٤٣٠.

{إنما علمها عند الله} [الأعراف: ١٨٧] ص٤٣٠.

{وما توفيقي إلا بالله} [هود: ٨٨] ص٤٣٠.

{يريد أن ينقض} [الكهف: ٧٧] ص٤٣٣.

{استوى على} [الأعراف: ٥٤] ص٤٣٣.

{ليس كمثله شيء} [الشورى: ١١] ص٤٣٣.

{سبحان الله عما يصفون} [المؤمنون: ٩١]، [الصافات: ١٥٩] ص٤٣٣.

{فتعالى الله عما يشركون} [الأعراف: ١٩٠]، [النمل: ٦٣] ص٤٣٣.

{لم يلد ولم يولد} [الإخلاص: ٣] ص٤٣٣.

{ليس كمثله شيء} [الشورى: ١١] ص٤٣٣.

{وهو الله في السموات وفي الأرض} [الأنعام: ٣] ص٤٣٣.

{الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} [الأعراف: ٤٣] ص٤٣٤.

{والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة} [النحل: ٧٨] ص٤٣٥.

{والله يهدي من يشاء} [البقرة: ٢١٣]، [النور: ٤٦] ص٤٣٧.

فصل في علم تعبير الرؤيا:

{لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثمَّ إن علينا بيانه} [القيامة: ١٦-١٩] ص٤٤٩.

{ولو شاء ربك ما فعلوه} [الأنعام: ١١٢] ص٤٥٣.

{والله يؤيد بنصره من يشاء} [آل عمران: ١٣] ص٤٥٣.

{يزيد في الخلق ما يشاء} [فاطر: ١] ص٤٥٦.

فصل في علم الهيئة:

{علم الإنسان ما لم يعلم} [العلق:] ص٤٥٩.

فصل في الطبيعيَّات:

{والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [البقرة: ٢١٣]، [النور: ٤٦] ص٤٦٤.

فصل في علم الإلهيات:

{والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [البقرة: ٢١٣]، [النور: ٤٦] ص٤٦٧.

{ولكن الشياطين كفروا يعلمون النَّاس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} [البقرة: ١٠٢] ص٤٦٩.

{وباطل ما كانوا يعملون} [الأعراف: ١١٨] ص٤٧٣.

{والله يهدي من يشاء} [البقرة: ٢١٣]، [النور: ٤٦] ص٤٧٣.

{وهو القوي العزيز} [الشورى: ١٩] ص٤٧٣.

فصل في علم أسرار الحروف:

{وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا} [الإسراء: ٨٥] ص٤٧٧.

فصل في إبطال الفلسفة، وإبطال منتحلها:

{ويخلق ما لا تعلمون} [النحل: ٨] ص٥٠٧.

{هيهات هيهات لما توعدون} [المؤمنون: ٣٦] ص٥١٩.

{فلا يظهر على غيبه أحدًا} [الجن: ٢٦] ص٥١٣.

{وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرًا بإذني} [المائدة: ١١٠] ص٥٢٠.

فصل في أن كثرة التّأليف في العلوم عائقة عن التحصيل:

{فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم} [المائدة: ٥٤]، [الحديد: ٢١]،

{ولكن الله يهدي من يشاء} [البقرة: ٢٧٢]، [القصص: ٥٦] ص٥٢٢.

فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم، وطريق إفادته:

{والله يهدي من يشاء} [البقرة: ٢١٣]، [النور: ٤٦].

فصل في الرحلة في طلب العلوم، ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم:

{والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم} [البقرة: ٢١٣]، [النور: ٤٦].

فصل في أن العلماء من بني البشر أبعد عن السِّياسة، ومذاهبها:

{وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف: ٧٦] ص٥٣٣.

فصل في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم:

{له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير} [التغابن: ١] ص٥٣٥.

فصل في أن العجمة إن سبقت إلى اللسان؛ قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي:

{إن في ذلك لآيات للمتوسمين} [الحجر: ٧٥] ص٥٣٧.

علم النحو:

{يزيد في الخلق ما يشاء} [فاطر: ١] ص٥٤٠.

فصل في لغة العرب لهذا العصر لغة مستقلة مغايرة للغة مضر، ولغة حمير:

{اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] ص٥٤٩.

فصل في تفسير مصطلح الذوق في مصطلح أهل البيان، وتحقيق معناه، وبيان أنها لا تحصل غالبًا للمستعربين من العجم:

{والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [البقرة: ٢١٣]، [النور: ٤٦] ص٥٥٥.

فصل في انقسام الكلام إلى فني النظم، والنثر:

{الله أنزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم} [الزمر:] ص٥٥٧.

{قد فصلنا الآيات} [الأنعام: ٩٧، ٩٨، ١٢٦] ص٥٥٧.

فصل في أنه لا تتفق الإجادة في فني النظم، والمنثور معًا إلا للأقل:

{والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٦] ص٥٥٩.

فصل في أن صناعة النظم، والنثر إنما هي في الألفاظ، لا في المعاني:

{ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون} [البقرة: ١٥١] ص٥٦٧.

فصل في بيان المطبوع من الكلام، والمصنوع، وكيف جودة المصنوع، وقصوره:

{والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى} [الليل: ١-٢] ص٥٧١.

{فأمامن أعطى واتقى وصدق بالحسنى} [الليل: ٥-٦] .

{فأما من طغى وآثر الحياة الدُّنيا} [النازعات: ٣٧- ٣٨] ص٥٧١.

{وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا} [الكهف: ١٠٤] ص٥٧١.

{ما لم تكونوا تعلمون} [البقرة: ٢٣٩] ص٥٧٢.

الموشحات، والأزجال في المشرق:

{ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين} [الروم: ٢٢] ص٥٩٩.

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون} [البقرة: ٢١٦] ص٦٠٠.

ملحق ٢
نماذج عمرانيَّة

في طبيعة العمران في الخليقة، وما يعرض فيها من البدو، والحضر، والتغلب، والكسب، والمعاش، والصَّنائع، والعلوم، ونحوها:

{اعلم أنه لما كانت حقيقة التَّاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التَّوحُّش، والتَّآنس، والعصبيَّات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك، والدُّول، ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم، ومساعيهم من الكسب، والمعاش، والعلوم، والصَّنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال، ولما كان الكذب متطرقًا للخبر بطبيعته، وله أسباب تقتضيه، فمنها التَّشيُّعات للآراء، والمذاهب؛ فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر؛ أعطته حقه من التمحيص، والنَّظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي، أو نحلة؛ قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل، والتَّشيُّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد، والتمحيص، فتقع في قبول الكذب، ونقله.

ومن الأسباب المفضية للكذب في الأخبار أيضًا الثِّقة بالنَّاقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التَّعديل، والتَّجريح.

ومنها الذهول عن المقاصد؛ فكثير من النَّاقلين لا يعرف القصد بما عاين، أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه، وتخمينه، فيقع في الكذب، ومنها توهم الصِّدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثِّقة بالنَّاقلين.

ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس، والتصنع فينقلها المخبر كما رآها، وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه، ومنها تقرب النَّاس في الأكثر لأصحاب التجلة، والمراتب بالثَّناء، والمدح، وتحسين الأحوال، وإشاعة الذكر بذلك، فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعة بحب الثَّناء، والنَّاس متطلعون إلى الدُّنيا، وأسبابها من جاه، أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل، ولا متنافسين في أهلها.

ومن الأسباب المفضية له أيضًا وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الأحوال في العمران؛ فإن كل حادث ذاتًا كان أو فعلًا[1] لا بدَّ له من طبيعة تخصه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفًا بطبائع الحوادث، والأحوال في الوجود، ومقتضياتها؛ أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصِّدق من الكذب، وهذا أبلغ من التمحيص في كل وجه يعرض، وكثيرًا ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة، وينقلونها، وتؤثر عنهم).

هكذا يعرض ابن خلدون إلى الأسباب المفضية للكذب عند المؤرِّخين، ثمَّ يتبع ذلك بأمثلة منها كما يقول بالحرف: (..كما نقله المسعودي عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندريَّة، وكيف اتخذ تابوت الخشب، وفي باطنه صندوق الزجاج، وغاص فيه إلى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانيَّة التي

---

(١) الذات يعني بها ابن خلدون الأشياء الماديَّة، أما الفعل فيعني به الأمور المعنويَّة كالأحداث التاريخيَّة في الزمن.

رآها، وعمل تماثيلها من أجساد معدنيَّة، ونصبها حذاء البنيان، ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها، وتم له بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبيل اتخاذه التابوت الزجاجي، ومصادمة البحر، وأمواجه بجرمه، ومن قبيل أن الملوك لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرور، ومن اعتمده منهم؛ فقد عرض نفسه للهكلة، وانتقاص العقدة، واجتماع النَّاس إلى غيره، وفي ذلك إتلافه، ولا ينتظرون به رجوعه عن غروره لذلك طرفة عين، ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور، ولا تماثيل تختص بها، وإنما هي قادرة على التشكل، وما يذكر من كثرة الرءوس لها فإنما المراد به البشاعة، والتهويل، لا أنه حقيقة، وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية، والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله، وهو أن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطَّبيعي، وتسخن روحه بسرعة لقلته، فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة، والروح القلبي، ويهلك مكانه.

وهذا هو السَّبب في هلاك أهل الحمامات إذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد، والمتدلين في الآبار، والمطامير العميقة المهوى إذا سخن هواؤها بالعفونة، ولم تداخلها الرياح، فتخلخلها فإن المتدلي فيها يهلك لحينه، وبهذا السَّبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر؛ فإن الهواء لا يكفيه في تعديل رئته إذ هو حار بإفراط، والماء الذي يعدله بارد، والهواء الذي خرج إليه حار، فيستولي الحار على روحه الحيواني، ويهلك دفعة، ومنه هلاك المصعوقين، وأمثال ذلك).

وعلى الرَّغم من أن المسعودي مؤرِّخ شهير فإن ابن خلدون يأخذ عليه نقل الأخبار المستحيلة في هذا المثال، فيأتي بالحجج المنطقيَّة، والأدلة القاطعة لتفنيد هذا النوع من الأخبار، ومن ذلك: (أن الملوك لا تحتمل أنفسها على مثل هذا الغرور،

ومن اعتمده منهم؛ فقد عرض نفسه للهلكة، وانتقاض العقدة، واجتماع النَّاس إلى غيره، وفي ذلك إتلافه).

ومنها (أن الجن لا يعرف لها صور، ولا تماثيل تخص بها) إلى غير ذلك من الأدلة الواردة في هذا الموضوع.(١)

ثمَّ يستعرض مثالًا آخر منسوبًا إلى المسعودي نفسه فيقول: (ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضًا في تمثال الزرزور الذي برومه تجتمع عليه الزرازير في يوم معلوم من السنة، حاملة للزيتون، ومنه يتخذون زيتهم، وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطَّبيعي لاتخاذ الزيت.

ومنها ما نقله البكري في المدينة المسماة: ذات الأبواب، تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة، وتشتمل على عشرة آلاف باب، والمدن إنما اتخذت للتحصن، والاعتصام كما سيأتي، وهذه خرجت عن أن يحاط بها، فلا يكون فيها حصن، ولا معتصم.

وهنا تكون الغرابة عند ابن خلدون.

وفي الواقع أن كثرة أبواب هذه المدينة تعتبر أمرصا غريبصا (والمدن إنما اتخذت للتحصن، والاعتصام).

ثمَّ يتابع الأخبار التي نقلها المسعودي فيقول: (وكما نقله المسعودي أيضًا في حديث مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة غفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب، وأنها مغلقة الأبواب، وأن الصاعد إليها من

---

(١) المقدِّمة ص: ٤٢-٤٣.

أسوارها إن أشرف على الحائط؛ صفق، ورمى بنفسه، فلا يرجع آخر الدهر، في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص.

وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب، والأدلاء، ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر، ثمَّ إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيلة عادة منافية للأمور الطَّبيعية في بناء المدن، واختطاطها، وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية، والخرثي.(١)

وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة، والبعد، وأمثال ذلك كثيرة، وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران، وهو أحسن الوجوه، وأوثقها في تمحيص الأخبار، وتمييز صدقها من كذبها، وهو سابق على التمحيص بتعديل الروايات، ولا يرجع إلى تعديل الروايات حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن، أو ممتنع.

وأما إذا كان مستحيلًا؛ فلا فائدة للنظر في التَّعديل، والجرح.

ولقد عد أهل النَّظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ، وتأويله بما لا يقبله العقل، وإنما كان التَّعديل، والتَّجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعيَّة؛ لأن معظمها تكاليف إنشائيَّة أوجب الشَّارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها، وسبيل صحة الظن الثِّقة بالرواة بالعدالة، والضبط.

وأما الأخبار عن الواقعات فلا بدَّ في صدقها، وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن ينظر في مكان وقوعه، وصار فيها ذلك أهم من التَّعديل، ومقدمًا عليه؛ إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه، ومن الخارج المطابقة، وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الإخبار بالإمكان، والاستحالة أن

---

(١) الخرثي: أثاث البيت.

ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته، وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضًا لا يعتد به، وما لا يمكن أن يعرض له.

وإذا فعلنا ذلك؛ كان ذلك لنا قانونًا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصِّدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه، وحينئذٍ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران؛ علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معيارًا صحيحًا يتحرى به المؤرِّخون طريق الصِّدق، والصواب فيما ينقلونه، وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا، وكان هذا علم مستقل بنفسه؛ فانه ذو موضوع وهو العمران البشري، والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض، والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيًّا كان أو عقليًّا.

واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدى إليه الغوص، وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقيَّة؛ فإن موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي، أو صدهم عنه، ولا هو أيضًا من علم السِّياسة المدنيَّة التي هي تدبير المنزل، أو المدينة بما يجب بمتقضى الأخلاق، والحكمة؛ ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه، فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين الذين ربما يشبهانه، وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ما أدري ألغفلتهم عن ذلك؟

وليس الظن بهم، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض، واستوفوه، ولم يصل إلينا، فالعلوم كثيرة، والحكماء في أمم النوع الإنساني كثيرون، وهذا الفن الذي لاح لنا النَّظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم، وهي من

جنس مسائله، فالموضوع، والطلب مثل ما يذكره الحكماء، والعلماء في إثبات النبوة من أن البشر يتعاونون في وجودهم، فيحتاجون فيه إلى الحاكم الوازع، ومثلما نذكر في أصول الفقه من باب إثبات اللغات أن النَّاس محتاجون إلى عبارات أخف، ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعيَّة بالمقاصد في أن الزنا مخلط للأنساب، مفسد للنوع، وأن القتل أيضًا مفسد للنوع، وأن الظلم مؤذن بخراب، المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعيَّة في الأحكام فإنها كلها مبنيَّة على المحافظة على العمران، فكان لها النَّظر فيما يعرض له من المسائل، وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل الممكنة، وكذلك أيضًا يقع إلينا القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليقة، لكنهم لم يستوفوه مثل ما ورد في حكاية بهرام التي ينقلها المسعودي.(١)

(أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة، والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا المال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل إلى العمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب، وجعل له قيمًا وهو الملك).

ومن كلام أنوشروان في هذا المعنى بعينه: (الملك بالجند، والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل باصلاح العمال، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء، ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه، واقتداره على تأديبها حتى يملكها، ولا تملكه)، ثمَّ يقول في نفس السياق: (ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك، والكسب،

---

(١) المقدِّمة ص: ٤٣-٤٦.

والصَّنائع بوجوه برهانيَّة يتضح بها التحقيق في معارف الخاصَّة، والعامَّة، وتدفع بها الأوهام، وترفع الشكوك.

لما كان الإنسان متميزًا عن سائر الحيوانات، وشرف بوصفه عن المخلوقات، ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع، والسُّلطان القاهر؛ إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل، والجراد، وهذه وإن كان لها مثل ذلك فبطبع إلهامي لا بفكر ورويَّة.

ومنها السعي في المعاش، والاعتمال في تحصيله من وجوهه، واكتساب أسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته، وبقائه، وهداه إلى التماسه، وطلبه، قال تعالى: {أعطي كل شيء خلقه ثمَّ هدى}.

ومنها العمران وهو التساكن، والتنازل في مصر، أو حالة الأنس بالغير، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما سنبينه، ومن هذا العمران ما يكون بدويًّا وهو الذي يكون في الضواحي، وفي الجبال، وفي الحلل المنتجعة في القفار، وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريًّا وهو الذي بالأمصار، والقرى، والمدن، والمدر للاعتصام بها، والتحصن بجدرانها، وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضًا ذاتيَّة له.

في العمران البشري على الجملة:

المقدِّمة الأولى: في أن الاجتماع الإنساني ضروري:

ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: (الإنسان مدني بالطبع) أي: لا بدَّ له من الاجتماع الذي هو المدنيَّة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وبيانه أن الله سبحانه خلق

الإنسان، وركبه على صورة لا تصح حياتها، وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادَّة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يومه من الحنطة مثلًا؛ فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن، والعجن، والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين، وآلات لا تتم إلا بصناعات متعدِّدة من حداد، ونجار، وفاخوري، هب أنه يأكله حبًّا من غير علاج، فهو أيضًا يحتاج في تحصيله إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة، والحصاد، والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج الواحد من هذه إلى آلات متعدِّدة، وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تفي بذلك كله، أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بدَّ من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه لكي يحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون، وقدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف.

وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضًا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه؛ لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها، وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان، فقدرة الفرس مثلًا أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكذا قدرة الحمار، والثور، وقدرة الأسد، والفيل أضعاف من قدرتهم.

المقدِّمة الرَّابعة: في أثر الهواء في أخلاق البشر:

(قد رأينا في خلق السودان على العموم الخفة، والطيش، وكثرة الطرب، فنجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر، والسَّبب الصَّحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح، والسرور هي انتشار الروح

الحيواني، وتفشيه، وطبيعة الحزن بالعكس، وهو انقباضه، وتكاثفه، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار، مخلخلة له، زائدة في كميته، ولهذا يجب المنتشي من الفرح، والسرور ما يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزيَّة التي تبعثها صورة الخمر في الروح من مزيج، فيتفشى الروح، وتجيء طبيعة الفرح، وكذلك نجد المنغمسين في الحمامات، إذا انتعشوا في هوائها، واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم، فسخنت لذلك، حدث لهم فرح ربما انبعث كثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور.

ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار، واستولى الحر على أمزجتهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرَّابع أشد حرًّا، فتكون أكثر تفشيًا، وتكون أسرع فرحًا، وسرورًا، وأكثر انبساطًا، ويجيء الطيش أثر هذه، وكذلك يلحق بهم قليلًا أهل البلاد البحريَّة لما كان هواؤها متضاعف الحرارة لما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر، وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح، والخفة[1] موجودة أكثر من بلاد التلول، والجبال الباردة، وقد نجد يسيرًا من ذلك في أهل البلاد الجزيريَّة، ومن الإقليم الثَّالث لتوفر الحرارة فيها، وفي هوائها، لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف، والتلول.

واعتبر ذلك أيضًا بأهل مصر فإنها في مثل عرض البلاد الجزيريَّة، أو قريبًا منها، كيف غلب الفرح عليهم، والخفة، والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم، ولا شهرهم، وعامَّة مأكلهم من أسواقهم.

ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة، كيف بقي أهلها مطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل

(١) المقدِّمة ص: ٤٥-٤٨، ٨٨.

منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة، ويباكر إلى الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ[1] شيئًا من مدخره، وتتبع ذلك في الأقاليم، والبلدان تجد في الأخلاق أثرًا من كيفيات الهواء، (والله الخلاق العليم).

وقد تعرض المسعودي للبحث عن السَّبب في خفة السودان، وطيشهم، وكثرة الطرب فيهم، وحاول تعليله، فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس، ويعقوب بن اسحاق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم، وهذا الكلام لا محصل له، ولا برهان {والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}.

(١) رزاة ماله (كجمله، وعلمه) رزأ (بالضم) أصاب منه شيئًا، والرزيئة المصيبة كالرزء، والمرزأة.

المقدّمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب، والجوع، وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر، وأخلاقهم:

اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب، ولا كل سكانها في رغد من العيش، وبل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب، والأدم، والحنطة، والفواكه لذكاء المنابت، واعتدال الطينة، ووفر العمران، وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعًا، ولا عشبًا بالجملة، فسكانها في شغف من العيش مثل أهل الحجاز، وجنوب اليمن، ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب، وأطراف الرمال فيما بين البربر، والسودان، فإن هؤلاء يفقدون الحبوب، والأدم جملة، وإنما أغذيتهم، وأقواتهم الألبان اللحوم، ومثل العرب أيضًا الجائلين في القفار فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب، والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأحايين، وتحت ربقة من حاميتها، وعلى الإقلال لقلة وجودهم، فلا يتصلون منه إلى سد الخلة، أو دونها فضلًا عن الرغد، والخصب، وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان، فتعوضهم عن الحنطة أحسن معاض، وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب، والأدم من أهل القفار أحسن حالًا في جسومهم، وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش؛ فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم، وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أفقه في المعارف، والإدراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل؛ فكثير ما بين العرب، والبربر فيما وصفناه، وبين الملثمين، وأهل التلول يعرف ذلك من خبرهم، والسَّبب في ذلك -والله أعلم- أن كثرة الأغذية، وكثرة الأخلاق الفاسدة العفنة، ورطوبتها تولد في الجسم فضلات

رديئة... ويتبع ذلك انكساف الألوان، وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه، وتغطي الرطوبة على الأذهان، والأفكار مما يصعب على الدماغ من أبخرتها الرديئة تجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة.

واعتبر ذلك في حيوان القفر، ومواطن الجدب من الغزال، والنعام، والزرافة، والحمر الوحشيَّة، والبقرة مع أمثالها من حيوان التلول، والأرياف، والمراعي الخصبة كيف بيتها بعيدًا في صفاء أديمها، وحسن رونقها، وأشكالها، وتناسب أعضائها وحدة مداركها، فالغزال أخو الماعز، والزرافة أخو البعير، والحمار، والبقر أخو الحمار، والبقر، والبون بينهما ما رأيته، وما ذاك إلا لأجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة، والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليه أثره، والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها، وأشكالها ما شاء.

واعتبر ذلك في الآدميين أيضًا؛ فإنا نجد أهل الأقاليم الخصبة العيش، الكثيرة الزرع والضرع، والأدم، والفواكه يتصف أهلها غالبًا بالبلادة في أذهانهم، والخشونة في أجسامهم، وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم، والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير، أو الذرة مثل المصامدة منهم، وأهل غمارة، والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالًا في عقولهم، وجسومهم، وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الأدم، والبر مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة، وغالب عيشهم الذرة، فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول، وخفة الأجسام، وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم، وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر، والأمصار فإن أهل الأمصار، وإن كانوا مكثرين مثلهم من الأدم، ومخصبين في العيش إلا أن استعمالهم إياها بعد العلاج بالطبع، والتلطيف بها يخلطون معها، فيذهب لذلك غلظها، ويرق قوامها، وعامَّة مآكلهم لحوم الضأن، والدجاج، ولا

يغبطون السمن من بين الأدم؛ لتفاهته، فتقل الرطوبات كذلك في أغذيتهم، ويخف ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات الرديئة، فلذلك جسوم أهل الأمصار ألطف من جسوم أهل البادية المخشنين في العيش، وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم غليظة، ولا لطيفة.[١]

واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن، وأحواله يظهر حتى في حال الدِّين، والعبادة، فنجد المتقفين من أهل البادية، أو الحاضرة من يأخذ نفسه بالجوع، والتجافي عن الملاذ أحسن دينًا، وإقبالًا على العبادة من أهل الترف، والخصب، بل نجد أهل الدِّين قليلين في المدن، والأمصار لما عمها من القساوة، والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان، والأدم، ولباب البر، ويختص وجد البلاد، والعباد، والزهاد لذلك بالمتقفين في غذائهم من أهل البوادي، وكذلك تجد حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلف باختلاف حالها في الترف، والخصب)، وكذلك تجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته من أهل البادية، وأهل الحواضر، والأمصار إذ نزلت بهم السنون،[٢] وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب، وأهل مدينة فاس، ومصر فيما يبلغنا،[٣] لا مثل العرب أهل القفر، والصحراء، ولا مثل أهل بلاد النخل[٤] الذين غالب عيشهم التمر، ولا مثل أهل أفريقيا[٥] لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير، والزيت، وأهل الأندلس الذين

---

(١) المقدّمة.

(٢) جمع سنة، وهي الجدب، والقحط، ومنه قولهم: استنوا أي: أجدبوا، وأرض سنة، ومسنته لم تنبت، وعام سنت، ومسنت: جدب.

(٣) لاحظ أن المقدمة كتبت قبل رحلة ابن خلدون إلى المشرق.

(٤) من يعني هنا بأهل بلاد النخل؟

(٥) أفريقيا: تطلق آنذاك على تونس، وهي المغرب الأدنى.

غالب عيشهم الذرة، والزيت فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات، فلا تنال منهم ما تنال من أولئك، ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع، بل ولا يندر.(١)

والسَّبب في ذلك -والله أعلم- إن المنغمسين في الخصب، والمتعودين للأدم، والسمن خصوصًا تكتسب من ذلك أمعاءهم رطوبة فوق رطوبتها الأصليَّة المزاجيَّة، حتى تجاوز حدها، فإذا خولف بها العادة بقلة الأقوات، وفقدان الأدم، واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعي اليابس، والانكماش وهو (عضو) ضعيف في الغاية، فيسرع إليه المرض، ويهلك، أو عند الإفطار، ويكون ذلك غذاءهم، واستدام على ذلك خمسة عشر سنة؛ وغيرهم كثير، ولا يستنكر ذلك.(٢)

وفي العمران البدوي، والأمم الوحشيَّة، والقبائل، وما يعرض في ذلك من الأحوال: (اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالها، إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو بالتعاون على تحصيله، والابتداء بما هو ضروري منه، وبسيط قبل الحاجي، والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح، والغراسة، والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم، والبقر، والماعز، والنحل، والدود لنتاجها، واستخلاص فضلاتها.

وهؤلاء القائمين على الفلح، والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بدَّ إلى البدو لأنه متسع لما تتسع له الحواضر من المزترع، والفدن، والمسارح للحيوان، وغير ذلك، فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمر ضروري لهم، وكان حينئذٍ اجتماعهم، وتعاونهم في حاجتهم، ومعاشهم، وعمرانهم من القوت، والكن، والدفاءة إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة يحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز كما وراء ذلك.

---

(١) بمعنى أنه ينعدم.

(٢) المقدِّمة ص: ٩٠-٩٢.

ثمَّ إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى، والرفة، دعاهم ذلك إلى السُّكون، والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات، والملابس، والتأنق فيها، وسعة البيوت، واختطاط المدن، والأمصار للتحضر.

ثمَّ تزيد أحوال الرفة، والدعة، فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت، واستجابة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير، والديباج، وغير ذلك، ومعالاة البيوت، والصروح، وأحكام وضعها في تنجيدها، والانتهاء في الصَّنائع في الخروج من القوة إلى الفعل(١) إلى غايتها، فيتخذون القصور، والمنازل، ويجرون فيها المياه، ويعالون في صرحها، ويبالغون في تنجيدها، ويختلفون في استجابة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس، أو فراش، أو آنية، أو ماعون، وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار، والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصَّنائع، ومنهم من ينتحل التجارة، وتكون مكاسبهم أنمى، وأرفه من أهل البدو؛ لأن أحوالهم زائدة من الضَّروري، ومعاشهم على نسبة وجودهم، فقد تبين أن أجيال البدو، والحضر طبيعيَّة لا بدَّ منها كما قلناه.(٢)

---

(١) الخروج من القوة إلى الفعل مصطلح فلسفي بمعنى التحول من (النظر)، أو (الافتراض) إلى الواقع.

(٢) المقدِّمة ص: ١١٨.

فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

قد قدمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطَّبيعي من الفلح، والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضَّروري من الأقوات، والملابس، والمسكن، وسائر الأحوال، والعوائد، ومقصورون عما فوق ذلك من حاجي، أو كمالي يتخذون البيوت من الشعر، والوبر، والشجر، أو من الطين الحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستظلال، والكن، لا ما وراءه، وقد يأوون إلى الغيران، والكهوف، وأما أقواتهم، فيتناولون بها يسيرًا بعلاج، أو غير علاج ألبتة إلا ما مسته النار، فمن كان معاشه منهم في الزراعة، والقيام بالفلح؛ كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان القرى، والمدن، والجبال، وهم عامَّة البربر، والأعاجم، ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم، والبقر؛ فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح، والمياه لحيواناتهم؛ فالتقلب في الأرض أصلح بهم، ويسمون شاوية، ومعناها القائمون على الشاة، والبقر، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة، وهؤلاء مثل البربر، والترك، وإخوانهم من التركمان، والصقالبة، وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنًا، وأبعد من القفر مجالًا؛ لأن مسارح التلول، ونباتها، وشجرها لا تستغني بها الإبل من قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر، وورود مياهه الملحة، والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارًا من أذى البرد.. وطلبًا لما خض النتاج في رماله، إذ الإبل أصعب الحيوان فصالًا، ومخضة، وأحوجها في ذلك إلى الدفاءة، فاضطروا إلى أبعاد النجعة، وربما زادتها الحامية عن التلول أيضًا، فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم، فكانوا لذلك أشد النَّاس توحشًا، وينزلون من أهل العرب، ومن في معناهم ظعون البربر، وزناتة بالمغرب، والأكراد، والتركمان، والترك بالمشرق

إلا أن العرب أبعد نجعة، وأشد بداوة؛ لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها، وعلى الشياه والنفر معها، فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بدَّ منه في العمران، والله سبحانه وتعالى أعلم.(١)

(١) المقدّمة ص: ١١٩.

فصل في أن البدو أقدم من الحضر، وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضَّروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه، وأن الحضر المعتنين بحاجات الترف، والكمال في أحوالهم، وعوائدهم، ولا شك أن الضَّروري أقدم من الحاجي، والكمالي، وسابق عليه؛ لأن الضَّروري أصلي، وكمالي فرع ناشئ عنه؛ فالبدو أصل للمدن، والحضر، وسابق عليهما؛ لأن أول مطالب الإنسان الضَّروري، ولا ينتهي إلى الكمال، والترف إلا إذا كان الضَّروري حاصلًا؛ فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التَّمدُّن غاية للبدوي يجري إليها، وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها، ومتى حصل على الرياش الذي تحصل له به أحوال الترف، وعوائده؛ عاد إلى الدعة، وأمكن نفسه إلى قيادة المدينة، وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم.

والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها، أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته، ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر، ومتقدم عليه أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار؛ وجدنا أوليَّة أكثرهم من أهل البدو، والذين بناحية ذلك المصر، (وفي قراه، وأنهم إن أيسروا سكنوا المصر)،[1] وعدلوا إلى الدعة، والترف الذي في الحضر، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة، وأنها أصل لها فتفهمه.

(١) وأحيانًا يكون نزوح البدو إلى الأمصار بسبب الفقر، وشغف العيش.

ثمَّ إن كل واحد من البدو، والحضر متفاوت الأحوال من جنسه، فربَّ حي أعظم من حي، وقبيلة أعظم من قبيلة، ومصر أوسع من مصر، ومدينة أكثر عمرانًا من مدينة، فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن، والأمصار وأصل لها بما أن وجود المدن، والأمصار من عوائد الترف، والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشيَّة، والله أعلم.[1]

(١) المقدِّمة ص: ١٩-٢٠.

فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها، وينطبع فيها من خير، أو شر، قال صلى الله عليه وسلم: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»، وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر، ويصعب عليها التشابه؛ فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير؛ حصلت له ملكته، وبعد عن الشر، وصعب عليه طريقه، وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضًا عوائده، وأهل الحضر؛ لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ، وعوائد الترف، والإقبال على الدُّنيا، والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق، والشر، وبعدت عليهم طرق الخير، ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك، حتى لقد ذهب عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم، وبين كبرائهم، وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر في الفواحش قولًا، وعملًا، وأهل البدو، وإن كانوا مقبلين على الدُّنيا مثلهم إلا أنهم في المقدار الضَّروري، لا في الترف، ولا في شيء من أسباب الشهوات، واللذات، ودواعيها؛ ففوائدهم في معاملاتهم على نسبتها، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء، ومذمومات الخلق بالنِّسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير فهم أقرب إلى الفطرة الأولى، وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة، وقبحها، فيسهل علاجهم عن علاج الحضر، وهو ظاهر، وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران، وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر، والبعد عن الخير، وقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، والله يحب المتقين.

ولا يعترض على ذلك فيما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لسلمة بن الأكوع وقد بلغه أنه خرج إلى سكنى البادية، فقال له: (ارتددت على عقبك؟ تعربت؟) فقال: (لا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في البدو).

فاعلم أن الهجرة افترضت أول الإسلام على أهل مكة؛ ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن، فينصرونه، ويظاهرونه، ويحرسونه، ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية؛ لأن أهل مكة يمسهم من عصبيَّة النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة، والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب.

وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب، وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة: «**اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم**»، ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة، وعدم التحول عنها، فلا يرجعون عن هجرتهم التي ابتدءوا بها، وهو من باب الرجوع على العقب في السعي إلى وجه من الوجوه، وقيل: إن ذلك كان خاصًا بها قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلة المسلمين، وأما بعد الفتح، وحين كثر المسلمون، واعتزوا، وتكفل الله لنبيه بالعصمة من النَّاس فإن الهجرة ساقطة حينئذٍ لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح)، وقيل: سقط إنشاؤها عمن يسلم بعد الفتح، وقيل: سقط وجوبها عمن أسلم، وهاجر قبل الفتح، والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة؛ لأن الصحابة افترقوا من يومئذٍ في الآفاق، وانتشروا، ولم يبق الأفضل السكنى بالمدينة، وهو هجرة.

فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية: (أرتددت على عقبيك؟ تعربت؟) نعي عليه في ترك السكنى بالمدينة، بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدمناه، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «**ولا تردهم على أعقابهم**»، وقوله: (تعربت) إشارة إلى أنه صار

من الأعراب الذين لا يهاجرون، وأجاب سلمة بإنكار ما ألزمه من الأمرين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن له في البدو.[1]

(١) المقدّمة ص: ١١٩-١٢٢.

فصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة بالمنعة منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه؛ إذ الرؤساء، والأمراء المالكون لأمر النَّاس قليل بالنِّسبة إلى غيرهم؛ إذ الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره، ولا بدَّ، فإن كانت الملكة رفيقة، وعادلة لا يعاني منها حكم، ولا منع وصد كان النَّاس من تحت يدها مدلين بها في أنفسهم من شجاعة، أو جبن، واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الإذلال جبلة، لا يعرفون سواها، أما إذا كانت الملكة، وأحكامها بالقهر، والسطوة، والإخافة، فتكسر حينئذٍ من صورة بأسهم، وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه، وقد نهى عمر سعدًا رضي الله عنهما عن ملكها لما أخذ زهرة من حوبة سلب الجالنوس، وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفًا من الذهب، وكان اتبع الجالنوس يوم القادسيَّة، فقتله، وأخذ سلبه، فانتزعه منه سعد، وقال له: هل انتظرت في اتباعه إذني؟، وكتب إلى عمر يستأذنه، فكتب إليه عمر: (تعمد إلى مثل زهرة، وقد صلى بها صلى به، وبقي عليك ما بقي من حربك، وتكسر خوفه، وتفسد قلبه)، وأمضى له عمر سلبه.

وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب؛ فمذهبة للبأس بالكليَّة؛ لأن وقوع العقاب به، ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من صورة بأسه بلا شك.

وأما إذا كانت الأحكام تأديبيَّة، وتعليميَّة، وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشَّيء لمرباه على المخافة، والانقياد، فلا يكون مدلًا ببأسه، ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأسًا ممن تأخذه الأحكام، ونجد أيضًا الذين

يعانون الأحكام، وملكتها من لدن مرباهم في التأديب، والتعليم في الصَّنائع، والعلوم، والديانات، ينقص ذلك من بأسهم كثيرًا، ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه، وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة، والأخذ عن المشايخ، والأئمة الممارسين للتعليم، والتأديب في مجالس الوقار، والهيبة فيهم هذه الأحوال، وذهابها بالمنعة، والبأس.

ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدِّين، والشريعة، ولم ينقص ذلك من بأسهم، بل كانوا أشد النَّاس بأسًا؛ لأن الشَّارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم؛ كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلا عليهم من الترغيب، والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي، ولا تأديب تعليمي، إنما هي أحكام الدِّين، وآدابه المتلقاة نقلًا، يأخذون أنفسهم بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان، والتصديق، فلم تزل صورة بأسهم مستحكمة، كما كانت، ولم تخدشها أظفار التأديب، والحكم.

قال عمر رضي الله عنه: (من لم يؤدبه الشرع؛ لا أدبه الله) حرصًا على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه، ويقينًا بأن الشَّارع أعلم بمصالح العباد.

ولما تناقص الدِّين في النَّاس، وأخذوا بالأحكام الوازعة، ثمَّ صار الشرع علمًا، وصناعة يؤخذ بالتعليم، والتأديب، ورجع النَّاس إلى الحضارة، وخلق الانقياد إلى الأحكام نقصت بذلك صورة البأس فيهم، فقد تبين أن الأحكام السُّلطانيَّة، والتعليميَّة مفسدة للبأس؛ لأن الوازع فيها أجنبي، وأما الشرعيَّة فغير مفسدة؛ لأن الوازع فيها ذاتي، ولهذا كانت هذه الأحكام السُّلطانيَّة، والتعليميَّة مما يؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم، وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم، وكهولهم، والبدو بمعزل عن هذه المنزلة؛ لبعدهم عن أحكام السُّلطان، والتعليم، والآداب، ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه في أحكام المعلمين والمتعلمين: (أنه لا ينبغي

للمؤدب أن يضرب أحدًا من الصبيان في التعليم فوق ثلاث أسواط)، نقله عن شريح القاضي، واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغط، وأنه كان ثلاث مرات، وهو ضعيف، ولا يصلح شأن الغط أن يكون دليلًا على ذلك؛ لبعده عن التعليم المتعارف. والله الحكيم الخبير.(١)

(١) المقدمة ص: ١٢٣-١٢٤.

فصل في أن العصبيَّة إنما تكون من الالتحام بالنسب، أو ما في معناه

وذلك أن صلة الرحم الطَّبيعي في البشر إلا في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى، وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم، أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه، أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب، والمهالك نزعة طبيعيَّة في البشر أيًا كانوا، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبًا جدًّا بحيث حصل به الاتحاد، والالتحام؛ كانت الوصلة ظاهرة، فاستدعت ذلك بمجرَّدها، ووضوحها، وإذا بعد النسب بعض الشَّيء فربما تتوسى بعضها شهرته، فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه؛ فرارًا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه.

ومن هذا الباب الولاء، والحلف، إذ تعزة كل أحد على أهل ولايته، وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها، أو قريبها، أو نسيبها بوجه من وجوه النسب، وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب، أو قريبًا منها، ومن هنا نفهم قوله صلى الله عليه وسلم: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم**» بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة، والنعرة، وما فوق ذلك مستغنى عنه؛ إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له، ونفعه إنما هو في هذه الوصلة، والالتحام، فإذا كان ظاهرًا واضحًا؛ حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما تلناه، وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد؛ ضعف فيه الوهم، وذهبت فائدته، وصار الشغل به مجانًا، ومن أعمال اللهو المنهي عنه، ومن هذا الاعتبار معنى قولهم: النسب علم لا ينفع، وجهالة لا تضر، بمعنى

أن النسب إذا خرج عن الوضوح، وصار من قبيل العلوم؛ ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس، وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبيَّة، فلا منفعة فيه حينئذٍ، والله سبحانه وتعالى أعلم.[1]

(١) المقدِّمة ص: ١٢٥-١٢٦.

فصل في أن الرئاسة لا يزال نصابها المخصوص من أهل العصبيَّة

اعلم أن كل حي، أو بطن من القبائل، وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففيهم أيضًا عصبيات أخرى لأنساب خاصَّة هي أشد التحامًا من النسب العام لهم مثل عشير واحد، وأهل بيت واحد، أو إخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الأقربين، أو الأبعدين؛ فهؤلاء أفقد نسبهم المخصوص، ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام، والنعرة تقع من أهل بيتهم المخصوص، ومن أهل النسب العام إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة.

والرئاسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم، ولا تكون في الكل، ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبيَّة ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب؛ ليقع الغلب بها، وتتم الرئاسة لأهلها، فإذا وجب ذلك؛ تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم، وصارت في العصائب الأخرى النازلة في عصابتهم في الغلب لما تمت لهم الرئاسة، فلا تزال في ذلك النصاب، فتتناقله من فرع منهم إلى فرع، ولا تنقل إلا إلى الأقوى من فروعه؛ لما قلناه من سر الغلب؛ لأن الاجتماع، والعصبيَّة بمثابة المزاج في المتكون، والمزاج في المتكون لا يصلح إلا إذا تكافأت العناصر، فلا بدَّ من غلبة أحدها، وإلا لم يتم التكوين؛ فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبيَّة، ومنه تعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص.

فصل في أن البيت، والشرف بالأصالة، والحقيقة لأهل العصبيَّة، ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك أن الشرف، والحسب إنما هو بالخلال، ومعنى البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرافًا مذكورين تكون له بولادتهم إياه، والانتساب إليهم تجلة سلفه، وشرفهم بخلالهم، والنَّاس في نشأتهم، وتناسلهم معادن: «**خيارهم في الجاهليَّة خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**» فمعنى الحسب راجع إلى الأنساب، وفائدها إنما هي العصبيَّة للنعرة، والتناصر، فحيث تكون العصبيَّة مرهوبة، ومخشيَّة، والمنبت فيها زكي محمي تكون فائدة النسب أوضح، وثمرتها أقوى، وتعديد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها، فيكون الحسب، والشرف أصلين في أهل العصبيَّة؛ لوجود ثمرة النسب، وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبيَّة؛ لأنه سرها، ولا يكون للمنفردين من أهل الأمصار بيت إلا بالمجاز، وإن توهموه فزخرف من الدعاوى، وإذا اعتبرت الحسب في أهل الأمصار؛ وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفًا من خلال الخير، ومخالطة أهله مع الركون إلى العافية ما استطاع، وهذا مغاير لسر العصبيَّة التي هي ثمرة النسب، وتعديد الآباء، ولكنه يطلق عليه حسب، وبيت بالمجاز؛ لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير، ومسالكه، وليس حسبًا بالحقيقة، وعلى الإطلاق، وإن ثبت أنه حقيقة فيهما بالوضع اللغوي؛ فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضعه أولى.

وقد يكون للبيت شرف أولًا بالعصبيَّة، والخلال، ثمَّ ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم، ويختلطون بالعمارة، ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من إشراف البيوتات أهل العصائب، وليسوا منها في شيء لذهاب

العصبيَّة جملة، وكثير من أهل الأمصار، والناشئين في بيوت العرب، أو العجم لأول عهدهم، موسوسون بذلك، وأكثر ما رسخ الوسواس في ذلك لبني إسرائيل فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت:

أولًا: لما تعدد في سلفهم من الأنبياء، والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم، وشريعتهم، ثمَّ بالعصبيَّة ثانية، وما آتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به، ثمَّ انسلخوا من ذلك أجمع، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وكتب عليهم الجلاء في الأرض، وانفردوا للاستعباد للكفر آلافًا من السنين، وما زال هذا الوسواس مصاحبًا لهم، فتجدهم يقولون: هذا هاروني، هذا من نسل يشع، هذا من عقب كالب، هذا من سبط يهوذا، مع ذهاب العصبيَّة، ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة، وكثير من أهل الأمصار، وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصبيَّة يذهب إلى هذا الهذيان، وقد غلط أبوالوليد ابن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب (الخطابة) من تلخيص كتاب المعلم الأول.[1]

(والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة).

ولم يعترض لما ذكرناه، وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزولهم بالمدينة إن لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه، ويحمل غيرهم على القبول منه؟ فكأنه أطلق النسب على تحديد الآباء فقط مع أن الخطابة إنما هي استمالة من تؤثر استمالته وهم أهل الحل، والعقد، وأما من لا قدرة له ألبتة، فلا يلتفت إليه، ولا يقدر على استمالة أحد، ولا يستمال هو وأهل الأمصار من الحضر بهذه المثابة إلا أن ابن رشد ربي في جيل، وبلد لم يمارسوا العصبيَّة، ولا أنسوا أحوالها، فبقي في أمر البيت، والحسب على الأمر

(١) اصطلح على تسمية أرسطو بالمعلم الأول.

المشهور من تقدير الآباء على الإطلاق، ولم يراجع فيه حقيقة العصبيَّة، وسرها في الخليقة، {والله بكل شيء عليم}.[1]

(١) المقدّمة ص: ١٢٧-١٣١.

فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف، وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب؛ استولت على النعمة بمقدار شاركت أهل النعم، والخصب في نعمتهم، وخصبهم، وضربت معهم في ذك بسهم، وحصة بمقدار غلبتها، واستظهار الدَّولة بها، فإن كانت الدَّولة من القوة بحيث لا يطمح أحد في انتزاع أمرها، ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها، والقنوع بما يسوغون من نعمتها، ويشكون فيه من جبايتها، ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك، ولا أسبابه، إنما همتهم النعيم، والكسب، وخصب العيش، والسُّكون في ظل الدَّولة إلى الدعة، والراحة، والأخذ بمذاهب الملك في المباني، والملابس، والاستكثار من ذلك، والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش، والترف، وما يدعو إليه من توابع ذلك، فتضعف خشونة البداوة، وتضعف العصبيَّة والبسالة، وينغمسون فيما آتاهم الله من البسطة، وتنشأ بنوهم، وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم، وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضَّرورية في العصبيَّة، حتى يصير ذلك خلقًا لهم، وسجيَّة، فتنقص عصبيتهم، وبسالتهم في الأجيال بعدهم يتعاقبها إلى أن تنقرض العصبيَّة، فيأذنون بالانقراض، وعلى قدر ترفهم، ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلًا عن الملك فإن عوارض التصرف، والغرق في النعيم كاسر من صورة العصبيَّة التي بها التغلب، وإذا انقرضت العصبيَّة؛ قصر القبيل عن المدافعة، والحماية فضلًا عن المطالبة، والتهمتهم الأمم سواهم، فقد تبين أن الترف من عوائق الملك، {والله يؤتي ملكه من يشاء}.

فصل في أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله، وعوائده

والسَّبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها، وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال لما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو الكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك، واتصل لها؛ حصل اعتقاد فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبيَّة، ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من العوائد، والمذاهب تغالط أيضًا بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه، ومركبه، وسلاحه في اتخاذها، وأشكالها، بل وفي سائر أحواله، وانظر ذلك في الأبناء مع آباءهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية، وجند السُّلطان في الأكثر؛ لأنهم الغالبون لهم، حتى إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسير إليهم من هذا التشبه، والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس، لهذا العهد مع أمم الجلالقة فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم، وشاراتهم، والكثير من عوائدهم، وأحوالهم حتى في رسم التماثل في الجدران، والمصانع، والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله، وتأمل في هذا سر قولهم: (العامَّة على دين الملك)؛ فإنه من بابه؛ إذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعيَّة مقتدون به؛ لاعتقاد الكمال فيه

اعتقاد الأبناء بآبائهم، والمتعلمين بمعلمهم، والله الحكيم، وبه سبحانه وتعالى التوفيق.[1]

(١) المقدّمة ص: ١٣٥-١٣٦، ١٤١-١٤٢.

استنتاجات ختاميَّة

نستنتج من خلال بحثنا هذا أن ابن خلدون شخصيَّة مركبة ذات جانبين، أو اهتمامين أحدهما ثقافي، والآخر سياسي.

وهو ليس شخصيَّة عصاميَّة وحسب، بل هو أيضًا شخصيَّة عظاميَّة؛ لأنه لم يسبق إلى هذا العلم (علم العمران البشري، والاجتماع الإنساني)، بل هو مؤسسه، ومكتشفه.

- أن علم العمران الخلدوني ذو خلفيَّة إسلاميَّة، أما علم الاجتماع الغربي فهو ذو خلفيَّة علمانيَّة.

- أن الغاية من إنشاء علم العمران كانت بغرض عصمة المؤرِّخين من المزالق، والمغالط التي كثيرًا ما كانوا يقعون فيها لعدم إدراكهم لقوانين العمران البشري، والقواعد التي تحكم المجتمعات الإنسانيَّة عبر الزمان، والمكان.

لكنَّ ابن خلدون لم يطبق هذه القواعد في تاريخه، وإنما هو (كتاب تاريخ) كغيره من المؤلفات التي تعنى بهذا العلم (التَّاريخ)، وليس أكثر هذه التواريخ تميزًا.

- أن المقدِّمة قد نالت شهرة أكثر من تاريخ ابن خلدون نفسه، وما هي إلا مقدِّمة له.

- أن المنصفين من المفكرين اعتبر علم العمران البشري هو بداية علم الاجتماع، بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فاعتبر أن ابن خلدون هو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع.

- أن المقدّمة لم تكن متمخضة لنظريات ابن خلدون العمرانيَّة، وإنما تناول فيها مواضيع أخرى لا تمت إلى علم العمران بصلة.

- أن كثيرًا من نظريات ابن خلدون (السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة) يمكن تطبيقها على واقعنا الحاضر.

- أن ابن خلدون لم ينشئ علم العمران كغاية، وإنما أنشأه (خدمة للتَّاريخ).

أهم المصادر، والمراجع

١ - مقدِّمة ابن خلدون، العلامة عبد الرحمن بن خلدون (طبعات مختلفة).

٢- العصبيَّة والدَّولة، معالم نظريَّة خلدونيَّة في التَّاريخ الإسلامي، الدكتور محمد عابد الجابري، الطبعة الخامسة، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت.

٣- الأسس الإسلاميَّة في فكر ابن خلدون ونظرياته، الدكتور مصطفى الشكعة، الدار المصريَّة اللبنانيَّة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، القاهرة.

٤ - ابن خلدون وهيغل دراسة مقارنة، محمد حسين نصر، الدار الجماهيريَّة للنشر والتوزيع- ليبيا- ١٩٩٣.

٥- خلدونيات، السِّياسة العمرانيَّة، الدكتور ملحم قربان، المؤسسة الجامعيَّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤.

٦- الخلدونيَّة العلوم الاجتماعيَّة وأساس السلطة السِّياسيَّة، الدكتور نور الدِّين حقيقي، ترجمة إلياس خليل، بيروت، اعويدات، ١٩٨٣.

٧- مناهج البحث في علم الاجتماع، عمر محمد التومي الشيباني، المنشأة العربيَّة للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

٨- ابن خلدون معاصرًا، الدكتور محمد عبد العزيز الحبابي، ترجمة فاطمة الحبابي، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٤.

٩- ابن خلدون (سلسلة فلاسفة العرب) دار المشرق، بيروت، الطبعة الثّانية، ١٩٨٦.

١٠- ابن خلدون وتفوق الفكر العربي على الفكر اليوناني باكتشافه وحقائقه الفلسفيَّة، الدكتور مصباح العاملي، الدار الجماهيريَّة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

١١- الفكر الواقعي عند ابن خلدون- تفسير تحليلي وجدلي لفكر ابن خلدون في بنيته ومعناه، ناصيف نصار، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثّالثة ١٩٩٤.

١٢- عبد الرحمن بن خلدون، دراسة ومنتخبات، الدكتور أحمد الطويلي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، طبعة ١٩٩٣.

١٣- العمران البشري في مقدِّمة ابن خلدون تأليف الدكتورة شفتيلا باسيفا، ترجمة عن الروسيَّة رضوان إبراهيم، الدار العربيَّة للكتاب، طرابلس، ليبيا، ١٩٧٨.

١٤- مقدِّمة ابن خلدون، دراسة أصوليَّة تاريخيَّة. الدكتور أحمد صبحي منصور، الدار العربيَّة للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٧٨.

١٥- ابن خلدون، سيرته وفلسفته التّاريخيَّة والاجتماعيَّة، الدكتور عمر فاروق، مؤسسة المعارف، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢.

١٦- ابن خلدون وعلوم الاجتماع، الدكتور محمود عبد المولى الدار العربيَّة للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨٠.

١٧- ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، محمد عبد الله عنان، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة.

١٨- العلامة ابن خلدون ، ايف لاكوست، الطبعة الثَّالثة ١٩٨٢، بيروت.

١٩- ابن خلدون وعلم الاجتماع الحديث، فؤاد البعلي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٧.

٢٠- التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تأليف عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتاب اللبناني- لبنان، دار الكتاب المصري- مصر، ١٩٧٩.

٢١- تاريخ التفكير الاجتماعي، محمد أحمد بيومي، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، ١٩٩٠.

٢٢- ابن خلدون فلسفته الاجتماعيَّة، غاستون بوتول، ترجمة عادل زعيتر، المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، الطبعة الثَّانية ١٩٨٤.

٢٣- العرب وابن خلدون، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثَّانية ١٩٧١.

٢٤- ابن خلدون، مقال في المنهج التجريبي، الدكتور محمد الكردي، المنشأة العامَّة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا ١٩٨٤.

٢٥- ابن خلدون وتاريخه، عزيز العظمة، دار الطليعة، بيروت، تَرجمة عبد الكريم ناصيف، الطبعة الثَّانية ١٩٨٧.

٢٦- تاريخ علم الاجتماع، الرواد والاتجاهات المعاصرة، الدكتور محمد علي محمد، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة ١٩٨٦.

٢٧- رواد الفكر الاجتماعي، دراسة تحليليَّة في تاريخ الفكر الاجتماعي، تأليف إحسان محمد ١٩٩١، بغداد.

٢٨- ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، المنظمة العربيَّة للتربيَّة والثقافة والعلوم، نشر الدار العربيَّة للكتاب ١٩٨٠.

٢٩- ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السِّياسة، محمد طه الجابري، دار النهضة العربيَّة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠.

٣٠- هل انتهت أسطورة ابن خلدون؟ جدل ساخن بين الأكادميين، والمفكرين العرب، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

٣١- تاريخ التفكير الاجتماعي، محمد أحمد بيومي، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، ١٩٩٠.